

تأسيس الشيخ ابن الكبير رحمه الله لمنهجية تدريس الفقه بالمدارس والمساجد. ومراعاته للفروق الفردية والقدرات الشخصية

كـ الدكتور خضر به قومار

إمام أستاذ بولاية غرداية، وأحد طلبة الشيخ رحمه الله



الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله، وصحبه، وأتباعه،
ومن والاه.

اشتملت مقدمة المداخلة على ذكر بعض النصوص الشرعية التي تبين فضل
الفقه منها قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾⁽¹⁾. وقوله رحمه الله: «مَنْ يُرِذِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ». وقوله رحمه الله: «يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمُ مِنْ كُلِّ خَلْفٍ عُدُولَهُ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْعَالِينَ، وَاتِّحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ».

منهج الشيخ: هو امتداد لمدرسة الأثر والحديث التي ظهرت بالمدينة المنورة
والتي انتهت بظهور الفقهاء السبعة رحمهم الله المجموعون في قول بعضهم:

أَلَا كُلُّ مَنْ لَا يَقْتَدِي بِأَيِّمَةٍ فَقَسَمَتُهُ ضِيْزَى عَنِ الْحَقِّ خَارِجَةٌ
فَخُذْهُمْ عَيْنُ اللَّهِ عَزْوَةَ قَاسِمٍ سَعِيدُ أَبُو بَكْرٍ سُلَيْمَانُ خَارِجَةٌ

ثم انتهت رئاسة هذه المدرسة إلى الإمام مالك رحمه الله والذي يذهب كثير من
العلماء إلى أن قوله رحمه الله: «يُوشِكُ أَنْ يَضْرِبَ النَّاسُ أَكْبَادَ الْإِبِلِ يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ فَلَا

(1) سورة التوبة/122.

يَجِدُونَ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْ عَالِمِ الْمَدِينَةِ»⁽¹⁾. أن المقصود به هو الإمام مالك رحمه الله.
وقد قال في مراقي السعد:

إذا سمعت فالإمام مالك صح له الشأو الذي لا يدرك

للأثر الصحيح مع حسن النظر في كل فن كالكتاب والأثر

ومدرسة الأثر بالمدينة المنورة لها خصائصها المعروفة وقد ذكرها العلماء
في مؤلفاتهم، ولذلك فمنج المالكية متقارب في مميزاته وخصائصه، وهو مستنبط
من مدرسة المدينة.

منهج الشيخ رحمه الله في تدريس الفقه: يمكن تلخيص هذه المنهجية بذكر
الخطوط العريضة، وأهم المميزات فيما يلي:

أ - الاتباع والتمسك بالنصوص الشرعية كتابا وسنة وأقوالا للسلف رحمهم الله
وتقديمهم على الرأي والقياس والآراء المحدثه، والبعد عن البدع المحدثات مع
ظهور حب المصطفى صلى الله عليه وسلم واحترامه وتوقيره في كل تصرفات هؤلاء العلماء
رحمهم الله وأقوالهم ومنهم شيخنا سيدي محمد بن الكبير رحمه الله، فالمستمع
لدروسهم يلاحظ ذلك ويشعر به ويتأكد من حيث احترامهم للسنة النبوية
وتعظيمهم لجنابه صلى الله عليه وسلم.

ب - مزج الفقه بمسحة التزكية والتربية والخشية لله تعالى، فيدرسوا الفقه
والعلم مع التنبيه إلى ضرورة العمل به والإخلاص لله عز وجل في مختلف الأعمال،
فبينما يتحدث عن الصلاة مثلا يبين حقيقتها ويتحدث عن عظمتها وأنها ليست
مجرد حركات قد يقوم بها المصلي وهو غافل عن الله، وكثيرا ما يذكر بقول ابن
عطاء الله رحمه الله: الأعمال صور قائمة وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها، وحينما
يدرس فقه الصيام وأحكامه يبين أن الصيام ليس مجرد امتناع عن الطعام
والشراب وسائر المفطرات الحسية ولكنه حصن ووقاية وجنة من المعاصي

(1) أخرجه الترمذي والنسائي.

الظاهرة والباطنة، وهكذا سائر المسائل الفقهية يربط ظاهرها بباطنها وروحها بجسدها وشكلها بمضمونها.

ت - البعد عن الحيل وترك الشبهات والأخذ بالأحوط وإفتاؤه بالمشهور من أقوال العلماء، فكثيرا ما يذكر قول عليه السلام: إِنَّ الْحَلَالَ بَيْنَ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيْنَ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِزِّهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ. وحديث: دَغَ مَا يَرِيكَ إِلَى مَا لَا يَرِيكَ. ويذكر بقول القائل:

وذو احتياط في أمور الدين من ترك الشك إلى القين

ث - الوسطية والاعتدال مع احترام العلماء وشيوخ المذاهب الأخرى وكثيرا ما يفتي بأقوال من المذاهب الأخرى تيسيرا على الناس.

ج - التأصيل للمسائل الفقهية وذكر أدلة الشرعية وبيان علل الأحكام وأسرار الشريعة.

هذه بعض الخطوط العريضة وبعض المميزات التي نعتقد انه يمكن استنباطها من منهج الشيخ رحمته الله والتي تجعله واضح المعالم.

3 - منهجه رحمته الله في إلقاء الدروس وتقرير المسائل الفقهية: يمكن ذكر بعض المميزات والخصائص المتعلقة بدروس الشيخ رحمته الله.

أ - لغة الشيخ في دروسه يفهمها الجميع، فلا تجد فيها أي صعوبة ولا غرابة في ألفاظها، ولا تقعر في تركيبها.

ب - شرح المصطلحات لغة واصطلاحاً؛ مما يعطي الطالب زادا معرفيا كبيرا.

ت - يرسخ المعلومة بإيراد مختلف النصوص الشرعية من القرآن والسنة وأقوال السلف، ثم يورد مختلف نصوص المتون الفقهية في هذه المعلومة (ابن عاشر - العبقري - الرسالة مختصر خليل...)، مما يجعل الطالب يتذكر كل النصوص الواردة في هذه المسألة من مختلف المصادر والمراجع.

ث - كان الشيخ رحمته الله يشرح المتون من شروح مشهورة، ويكرر تلك العبارات ويعيدها المرة بعد المرة، حتى ترسخ في أذهان الطلبة، وتتوحد مشاربهم حتى إن كثيراً من الطلبة يحفظون شرحه وكلامه وتقريره للمعاني؛ لكثرة تكرارها.

ج - ينه على بعض الدقائق والنكت وعويصات المسائل، ويورد بعض الألغاز الواردة في المسألة حتى يكون الطلبة على علم بها، وكثيراً ما كان يذكر أبياتا تجمع تلك الألغاز، وتبين تلك المسائل؛ ليسهل استحضارها.

ح - من منهجه أنه كان يدبج مجلسه ببعض النكت والملح التي لها علاقة بالدرس، فتضفي على المجلس نوعاً من الراحة والنشاط، وهذا منهج تربوي له نتائج الطيبة؛ كما أثبت ذلك الدراسات الحديثة، ومن أمثلة ذلك: أنه كان يذكر كيف كان البعض يشرح بعض الآيات خطأً، منها قولهم: ثم الصلاة والزكاة في القطاع (لا شك فيها)...، والشك في الحدث كفر من كفر (أي أن الشك كفر)....

من أسفل تساق من مزدلفة (رمي جمرة العقبة تكون برفع يده)

سئل شخص عن الجنين الذي وجد ميتاً في بطن أمه، هل يוכל أم لا؟ فقال: هل نبت شعره؟ فقال السائل نعم. فقال: كله فإن ابن عاشر يقول: أو بإنبات الشعر. الخ...

خ - كثيراً ما يذكر رحمته الله ما حدث له، أو سئل عنه سواء أثناء دراسته، أو أثناء رحلاته وتدرسه.

د - التنبيه على بعض المستجدات والفتاوى، والقضايا المعاصرة (الإحرام من جدة مسائل في الحج والعمرة،... وغيرها).

